المدرسة والدولة في العصرين الفاطمي والأيوبي

محمد اسكندراني

كان النشاط العلمي في معظم عصور الإسلام مرتبطاً الى حد بعيد بالنشاط الديني، فقد حرصت العقيدة الاسلامية على حث المسلمين على الاشتغال بالعلم، وكرّمت العلماء ورفعتهم درجات. فأقبل المسلمون على الدرس والتحصيل بعقول واعية، وبدأوا بالاشتغال بالعلوم الدينية من قراءات وفقه وتفسير وحديث وتشريع، مع العناية بالنحو والبلاغة والأدب والتاريخ.. وحظيت العلوم العقلية هي الأخرى بالاهتمام. فقد شجّعهم على المضي في ذلك ان القرآن الكريم نصّ على أن الطبيعة مصدرٌ هام من مصادر العلم، فقدّم للمسلمين آيات على الحق في الشمس والقمر، وامتداد الظل، واختلاف الليل والنهار، وتداول الأيام بين الناس... وقرّر القرآن أن هذه الآيات ماثلة في الكون كله، وأمر المسلم أن يتدبرها وأن يدرسها دراسة واعية تجعله يزداد إيماناً بقدرة خالق.

وفي حديثنا عن العلاقة بين السلطة السياسية (الدولة) والتعليم في المجتمع الاسلامي، من خلال تحليل دوافع السياسة التعليمية عند كل من الفاطميين والأيوبيين، إنما نقصد التعرُّف الى وجوه الارتباط القائم بين السلطة السياسية وعملية التعلُّم والتعليم، وتلمُّس دور القائمين على هذه السلطة في الثقافة

والتربية الاسلاميتين، والمسؤولية التي اضطلعوا بها في هذا المجال ترسيخاً لموقف الاسلام من العلم والعلماء من جهة، وبسطاً لنفوذهم وتدعيماً لسلطانهم من جهة أخرى. هذه المسؤولية التي تمثلت بظاهرة انشاء المدارس ودور العلم في الدولة الاسلامية.

من هذا ـ على سبيل المثال ـ ما ذكره جورج مقدسي من أن المدارس «النظامية كانت ملكاً لنظام الملك الذي كان يمسك في يده مفاتيح خزائنها والسلطة في أن يوظف ويعزل مدرسيها، وكانت مدرسة أبي حنيفة ملكاً لجماعة أبي حنيفة، فأدارتها في لجنة تمثل تلك الجماعة المذكورة...».

وقد أنشأ نظام الملك «مجموعة من المدارس لكي ينجز خططه السياسية خلال البلاد الواسعة في الامبراطورية الواقعة تحت سلطان السلاجقة»[1].

I

أماكن التعليم السابقة على ظهور المدرسة في الاسلام:

مما لا شك فيه أن المساجد والكتاتيب والزوايا وبعض الأماكن العامة والخاصة كانت هي المؤسسات العلمية الأولى عند المسلمين. فكانت المساجد من أول المنشآت التي اهتم بها المسلمون بعد الهجرة الكبرى، وكان مسجد الرسول ﷺ بالمدينة مركز الحركة العلمية في عصر الرسالة وزمن الخلفاء الراشدين. لذلك أصبحت تلك المساجد المكان المفضّل لمجالس العلم وحلقات الدرس.

ولا شك في أنه كان للمساجد عامة والمساجد الجامعة من بينها على وجه الخصوص دور كبير وهام في تعليم القرآن، وظهور القراءات المختلفة، بالاضافة الى تفسيره وفهم معانيه، ومعرفة أحكامه باعتباره كتاب المسلمين ودستورهم. ثم امتد هذا الدور الى السُنّة النبوية الشريفة، لا سيما علم

الحديث وما يتّصل به من جمع لأحاديث الرسول ﷺ واسنادها ورواتها، لاستخلاص الأحكام وأصول الشرع والفقه، باعتبارهما ـ القرآن والسُنّة ـ الأساس الأول للتشريع الإسلامي. ثم اتسعت دائرة هذه الحركة العلمية الدينية مع مرور الزمن وتطور الفكر الإسلامي، في عصر التابعين وتابعيهم، حتى جاء الأئمة المجتهدون بمذاهبهم المعروفة، فكان للمسجد دور في ظهور هذه المذاهب، وتعريف الناس بها؛ ثم في انتشارها في عالم الإسلام الواسع. ثم اتسعت دائرة العلم مرة ثالثة لتضم مجموعة جديدة من العلوم التي تخدم المجموعة الأولى وتساعد على دراستها وفهمها كالنحو واللغة والأدب وغيرها. ثم اتّسعت الدائرة العلمية أكثر لتحتوي داخلها كذلك بعضاً من العلوم التطبيقية كالطب، الذي كان للمسجد دور في تدريسه[1].

وقد أفردت لكل هذه العلوم المنوّعة حلقات الدرس ومجالس العلم في المسجد مما كان له أبلغ الأثر في تنشيط الحركة العلمية وتطورها بصورة عامة.

وقد أفاضت النصوص التاريخية في وصف مجالس العلماء والفقهاء والمحدثين والقصّاص والحفّاظ وغيرهم من شيوخ العلم والنابهين فيه، التي كانوا يعقدونها في المساجد الجامعة باعتبارها مراكز الحركة العلمية الأولى والهامة، فأقبل الناس على تلك الحلقات للتعرف على علوم الدين والدرس والتحصيل.

ومما يستوقف النظر في هذا المقام، ان حلقات الدرس كانت تتسع أو تضيق، تتعدد صفوفها أو تقلّ، تمشياً مع أعداد الطلاب الذين يتحلقون حول القائم بالتدريس. وهذه الأعداد بدورها كانت تتوقف على مدى شهرة «الشيخ» ورسوخ قدمه وعلو كعبه في تخصصه، بالاضافة الى طريقته في التدريس. فيحدثنا السيوطي ان حلقة أبي بكر النعالي، إمام المالكية في مصر، كانت تدور

---

(١) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص ٩٥.

على سبعة عشر عموداً في الجامع العتيق[١]. كما يحدثنا القزويني أن العالم الكبير رضي الدين النيسابوري الذي فاق جميع علماء عصره حتى عرف «بأستاذ البشر» كانت حلقته في مسجد البخاري تضم أربعمائة من الطلاب النابهين، وعزى هذا الإقبال الكبير على درس الشيخ رضي الدين إلى طريقته في التدريس التي كانت لا تقوم على التلقين والإملاء فقط، كما كان معروفاً وشائعاً في زمانه، بل إلى اهتمامه كذلك بعقد المناظرات بين الطلاب ومنحهم فرصة الحوار والمناقشة للاجتهاد بالرأي والتدليل على صحته، فتنمو فيهم القدرة على الجدل العلمي والفكري[٢].

وكما تعددت حلقات الدرس في المساجد الجامعة في الكمّ، فقد تنوّعت أيضاً في الكيف، حتى يمكن القول أنها شملت مختلف العلوم الشرعية (النقلية)، فكان طالب العلم يجد في المسجد الواحد ما يناسبه من تلك العلوم مما يسهّل عليه الدراسة. وما عليه إلا أن ينتقل من حلقة إلى أخرى سعياً وراء بغيته. ولذلك تمتعت المساجد الجامعة بمكانة عظيمة ونالت الاهتمام الكبير من جانب القائمين على الأمر في بلاد الإسلام كلها، سواء لإقامتها أو لترميمها وتوسعتها. فتحدثنا النصوص أن أحمد بن طولون عندما أراد أن يبني مسجده الجامع بالقطائع، عاصمته الجديدة في مصر قال: «أريد أن أبني بناءً ان احترقت مصر بقي وان غرقت بقي». فأشاروا عليه أن يبنيه بالجير والرماد والآجرّ الأحمر ولا يجعل فيه أساطين رخام لأنه لا صبر له على النار. فاستجاب ابن طولون للرأي، وبنى في مؤخرة مسجده ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الأشربة والأدوية. وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة[٣].

فاذا انتقلنا الى مسجدا لحاكم بأمر الله الفاطمي نجد أنه بعد أن ضربه

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، جـ ١، ص ٢١٢.
(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٧٤.
(٣) المقريزي، الخطط، جـ ٢، ص ٢٦٦.

الزلزال عام ٧٠٢ هـ، اهتم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير باصلاحه واعادة تعميره، ثم رتب فيه دروساً أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودرساً لإقراء الحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرّساً وعدّةً كثيرة من الطلبة[1].

وهكذا كان دور المسجد نشطاً ومؤثراً في تطور الحياة العقلية ونمو الفكر الإسلامي.

وإلى جانب المسجد كانت الخانقاوات والزوايا والكتاتيب والربط من المراكز والمؤسسات المهمة التي أنشأها المسلمون لنشر العلم والمعارف من دين وحديث وتاريخ وأدب وطب.. وقد استمرت هذه المؤسسات في القيام بواجبها وفي تأدية رسالتها، التي هي من صميم الدين، حتى بعد ظهور المدارس في العالم الإسلامي أواسط القرن الرابع الهجري تقريباً.

ففي هذه الفترة شهد العالم الإسلامي حركة كان لها أعمق الأثر في تطور الحياة العقلية الاجتماعية، والثقافية، هي حركة إنشاء المدارس.

II

المدارس في العالم الإسلامي

من يتتبع تاريخ الحركة الفكرية والنشاط الثقافي والتطور العلمي في العالم الإسلامي لا بد أن يدرك أن نشأة المدرسة كمؤسسة تستوعب هذا النشاط جاء تطوراً طبيعياً لنمو تلك الحركة. ذلك أن اتساع ذلك النشاط استلزم قيام مثل هذه المؤسسة.

ومهما يكن من أمر فإن هذا النبت الذي شق طريقه في مواطن معينة في أرجاء العالم الإسلامي لم يلبث أن أخذ يتكاثر تدريجياً. فأقبل الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك وأمراء ووزراء على انشاء المدارس وتدعيمها والعناية بأمرها

(١) المرجع نفسه، جـ ٢، ص ٢٧٨.

حتى شيّدوا منها الكثير. ومهما يقال لغوياً من أن الأصل في المدرسة أن تكون مكاناً لدراسة العلوم الدينية[1]، فإن الذي نحب أن نؤكده هو أن هذه المدارس غدت جامعات بالمعنى الحديث الذي نعرفه سواء من حيث تنوّع الدراسات التخصصية ورقي مستواها فيها، أو قدرتها على استيعاب طلاب العلم الوافدين إليها من كل فجّ. مع ملاحظة أن المدارس ظلت مكاناً تقام فيه الشعائر الدينية. بمعنى آخر فإن المدارس كانت مكان عبادة ودرس مثلما ظل المسجد مكان عبادة ودرس. كل ما في الأمر أن المدرسة غلبت عليها صفة الدراسة، والمسجد غلبت عليه صفة العبادة. هذا بالاضافة إلى أن المدرسة تميزت غالباً بسكن للمدرسين وطلاب العلم، مما لا نظير له بالمسجد.

ويبدو أن من أهم وظائف المدرسة، الى جانب وظيفتها العلمية، كانت ايجاد مأوى ومسكن للطلاب والمدرسين. فيذكر المقريزي في خططه أن الشيخ جلال الدين البُناني الحنفي درَّس في مدرسة الجاي، التي أسسها الأمير سيف الدين الجاي في سنة ٧٦٨ هـ «وكانت سكنه»[2].

ومن ناحية أخرى يقول المقريزي في حديث عن المدرسة الجمالية، التي بناها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالي في سنة ٧٣٦ هـ، وجعلها مدرسة للحنفية، أنها كانت «من أجلّ مدارس القاهرة وكان يسكنها أكابر فقهاء الحنفية»[3]. كما يذكر في مكان آخر أن المدرسة الصاحبية البهائية، التي بناها الصاحب بهاء الدين علي بن محمد سنة ٦٥٤ هـ، كانت «من أجلّ مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر يتنافس طلبة العلم على النزول بها، ويتشاحنون في

(١) جاء في لسان العرب لابن منظور: درست الكتاب أدرسه درساً. أي ذللته بكثرة الدراسة، حتى خفّ حفظه عليّ. ودرست الصورة أي حفظتها. المِدْراس والمِدْرَس: الموضع الذي يُدرس فيه، والمِدْراس: المكان الذي يُدرس فيه القرآن. وفي الحديث: تدارسوا القرآن أي اقرأوه وتعهدوه فلا تنسوه. (المجلد السادس، ص.ص ٨١ ـ ٨٢).

(١) المقريزي، خطط، جـ٢ ص ٣٩٩.

(٣) المرجع نفسه، جـ٢، ص ٣٩٢.

سكنى بيوتها، حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة»[١].

بالاضافة الى ذلك تميزت المدرسة عما سبقها من مؤسسات تعليمية بأحتوائها على الايوان، أو ما يعرف اليوم بقاعه المحاضرات، وهو من أبرز مرافقها؛ اضافة الى مساكن المدرسين والطلبة المنتسبين اليها كما تقدم ذكره، وعلى مرافق أخرى كالمطبخ وحجرة الطعام وما شاكل ذلك.

ولكي تجد المدرسة مورداً ثابتاً من المال يمكنها من مواصلة رسالتها، فإنّ مؤسسي المدارس حرصوا على وقف الأوقاف عليها، مثلها مثل غيرها من المؤسسات الدينية كالمساجد والزوايا والخانقاوات والبيمارستانات وغيرها.

وقد جرت العادة أن ينشىء الأمير أو السلطان أو الثري المدرسة ويقف عليها الأوقاف الواسعة لينفق من ريعها على المدرسة وموظفيها من مدرسين وشيوخ فضلاً عن طلاب العلم بها.

وتشير المصادر الى ان المدرّس غالباً ما كان يُعينّ من قِبل منشىء المدرسة أو واقفها بنصّ صريح كان يرد في كتاب الوقف، أو كان يعين من قبل الدولة. بخلاف الحلقة والكتاتيب التي كثيراً ما نذر بعض مدرّسيها أنفسهم للافادة بدون أجر أو تعيين من أحد.

كما أن عدد الطلاب في المدرسة كان يُحدَّد من قِبل الواقف أو المنشىء أو الدولة، وكان ينالهم ومعلميهم جميعاً نصيب من الأوقاف التي توقف عليها، أو كانت تعطى لهم رواتب ثابتة من خزانة الدولة[٢]. أو ما كان يعرف بالأجر المعلوم. فقد ذكر المقريزي ان «أول ما عُرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز ووزارة يعقوب بن كلس..»؛ كما ذكر السبكي أن الوزير نظام الملك، المتوفى

---

(١) المرجع نفسه، جـ٢، ص ٣٧١.
(٢) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص ١٠٠.

بعد العزيز بمائة سنة، كان يعطي الفقهاء والعلماء أجراً معلوماً .

ويمكننا في هذا المجال التمييز بين ثلاثة أنواع من المدارس لا يختلف بعضها عن بعض إلّا بأهمية مواردها المالية:

- مدارس خاصة مستقلة.

- مدارس أنشأها الأمراء وعلية القوم، وتتمتع بالتالي بدعم شبه رسمي.

- مدارس رسمية أسّسها الولاة والحكام، وتتمتع بدعم رسمي من قبل المؤسسين الذين أنشأوها وأوقفوا عليها الأوقاف.

من هنا نرى أن المدرسة كمؤسسة لم تنشأ فكرتها فجأة، بحيث تتحدَّد هذه النشأة بوقت محدد؛ وإنما جاءت هذه النشأة تدريجية، وتطورت بصورة أو بأخرى حتى اكتملت معاملها على أيام نظام الملك. من ذلك ما يذكره المقريزي في خططه من أن الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) عندما أراد بناء قصره في بغداد فإنه «استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسُئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية، ويجري عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه»[١].

بعد ذلك يمضي المقريزي في تتبعه لفكرة المدرسة فيقول: «ان أول من حُفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضاً الأمير نصر الدين بن سُبُكتكين مدرسة، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبُكتكين مدرسة، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية، وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة. . . »[٢].

(١) المقريزي، خطط، جـ ٢، ص ٣٦٣.
(٢) المرجع نفسه.

ومن ثم يقول المقريزي: «وأشهر ما بُني في القديم المدرسة النظامية ببغداد لأنها أول مدرسة قرّر بها للفقهاء معاليم. . . »[١].

III

وفي الواقع، ان مسألة لتعليم في المجتمع الإسلامي تتخطى حدودها الدينية التي يفرضها الإسلام، كدين، وينصّ عليها، وتأخذ طابعاً سياسياً في الغالب. صحيح أن الإسلام، كما رأينا، يحض ويحث على طلب العلم واكتسابه، لكننا نلاحظ أن المسؤولين والقائمين على السلطة في الدولة الإسلامية استهدفوا، باسم الدين ومبادئه تحقيق غايات وأهداف أخرى دنيوية وسياسية.

فالفاطميون، مثلاً، الذين كانوا أول من اهتم رسمياً بالتعليم، ودفع الأجور للعلماء في مصر، توخوا من خلال السياسة التعليمية التي انتهجوها، وعبر مؤسسات التعليم التي أسسوها (كالجامع الأزهر ودار الحكمة وغيرها) نشر مذهب الدولة الديني (المذهب الشيعي ـ الإسماعيلي)، وتوطيد سلطانهم وسلطتهم الدينية ـ السياسية.

والفاطميون هم إحدى أهم فرق الشيعة التي قالت بإمامة إسماعيل إبن جعفر الصادق وأبناء محمد بن إسماعيل من بعده[٢].

وكانت الخلافة الفاطمية التي قامت بالمغرب في أواخر القرن الثالث الهجري نتيجة الصراع العنيف الذي كان يدور بين السُنّة والشيعة. فقد ظل الشيعيون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم أولاد الامام علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة. وظلوا يناضلون في سبيل هذه الزعامة حتى تُوِّجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب أولاً، ثم في مصر.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) حول هذه الفرق أنظر:
ـ النوختي، أبو محمد، فرق الشيعة، والشهرستاني، الملل والنحل، والبغدادي، عبد القادر، الفرق بين الفرق، وآل كاشف الغطاء، محمد الحسين، أصل الشيعة وأُصولها.

وقد قامت الخلافة الفاطمية على فكرة تقديس الإمام وعصمته. وكان الفاطميون ينظرون الى الخليفة الفاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص. وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته، حتى لا يخلو العالم من إمام. وقد سمّوا أيضاً بالإسماعيليين[1]، نسبة الى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. كما أطلق عليهم اسم السبعية، وأحياناً العبيديين نسبة الى عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي.

وقد نهض المذهب الاسماعيلي على أيدي الفاطميين نهضة بعيدة الأثر من حيث استخدام الدعوة الاسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطمية وبسط نفوذها. فاعتمد عبيد الله المهدي على المدارس التي اطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب الاسماعيلي بين أشياعه. وقد راجت مدارس الدعوة هذه في «المهدية» حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة في شمال أفريقية في عهد عبيد الله المهدي، ثم راجت في «المنصورية» حاضرة هذه الدولة في عهد حفيده المنصور، ثم في القاهرة في عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين.

وقد عُرفت هذه المدارس في مصر باسم «مدارس الحكمة» أو دور الحكمة التي كان لها شأن كبير في نشر الثقافة الاسماعيلية. ومن هذه الدور «دار الحكمة» التي انشأها سادس الخلفاء الفاطميين الحاكم بأمر الله في سنة ٣٩٥ هـ. وقد ألحق بها مكتبة ضخمة أطلق عليها اسم دار العلم، حَوَت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات.

إضافة الى ذلك فقد تحوّل الجامع الأزهر الذي أنشأه الفاطميون في القاهرة الى مركز هام من المراكز الثقافية والتعليمية، لا سيما بعد أن حوّل الوزير يعقوب ابن كلس الجامع الأزهر، سنة ٣٧٨ هـ، الى جامعة تُدرَّس فيها العلوم

---

(١) حول الإسماعيلية وتطورها راجع:

Bernard Lewis, Les Assassins: Terrorisme et Politique dans L'islami médieval.

والآداب بعد ان كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، وعلى تدارس الفقه الشيعي ـ الاسماعيلي.

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لأنصارهم من الاسماعلية. وقد أسندت رئاسة الدعوة الفاطمية في ذلك الوقت الى موظف كبير أطلق عليه اسم «داعي الدعاة» كان يلي قاضي القضاة في الرتبة. وكثيراً ما كانت وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة تسندان الى شخص واحد. ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية ممثلون يمثلونه في كل بقعة من الأراضي الخاضعة للفاطميين، كما في جميع أنحاء العالم الاسلامي. وكانت صلاحياته ذات مستويين، فمن ناحية داخلية كان مسؤولاً عن التربية والتعليم، والاشراف على المحاضرات التي كانت تلقى في مجالس الدعوة؛ كما كان من صلاحياته أيضاً جمع النجوى[1]، وهي ضريبة معينة أشبه باشتراك العضوية في مذهب الاسماعيلية.

ومن ناحية خارجية كان يترأس هيئة شبيهة بمجمع الدعاية في الكنيسة الكاثوليكية في إشرافه على البعثات التبشيرية في الخارج.

وقد خُصّص لداعي الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على نشر الدعوة، فيتصل بالدعاة ويزوِّدهم بتعليماته. وكانوا يقدمون له في يومي الاثنين والخميس ما أعدّوه من المحاضرات التي تُلقى في أصول المذهب.

كما كان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس في مصنفاته فيحاضر الرجال، كما يعقد في الأزهر مجلساً خاصاً للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقنهن فيه أصول المذهب.

وقد ألحق الفاطميون بمساجدهم وقصورهم مكتبات احتوت على أعداد كبيرة من الكتب؛ بيد أن الفاطميين احتفظوا لحركتهم بطابعها السياسي، وظهروا بمظهر المعتدلين حيث إنهم جعلوا من الاسماعيلية مذهباً رسمياً، فلم

(١) المقريزي، خطط، جـ١، ص ٣٩١.

يعملوا على نشره بين عامة الشعب، مكتفين بمطالبتهم بتفضيل آل علي والبراءة من سواهم. وإذا كان بعض المتحمسين للمعز لدين الله قد غالوا في مديحه، مثل الشاعر محمد بن هانىء الأندلسي الذي قال فيه:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

فمن المعروف أن سياسة الدولة الفاطمية في مصر كانت سياسة متزنة لا تعرف التعصُّب حتى يمكن فعلاً وصفها بالمعقولة.

وقد بلغت عناية الفاطميين بالعلم ورعايتهم للعلماء درجة كبيرة أدت إلى قيام نهضة علمية مزدهرة بحيث استطاعت القاهرة بهذه النهضة العلمية ان تنافس بغداد، بل لا نبالغ اذا قلنا إن بغداد نفسها قد هجرها الكثير من العلماء، وأقبلوا الى القاهرة المعزية للرعاية العلمية التي كان يخص بها خلفاء هذه الدولة العلم والعلماء.

وبعد سقوط الدولة الفاطمية ووفاة العاضد الفاطمي، آخر خليفة من خلفاء هذه الدولة، قامت الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٦٧ هـ.

IV

لم ينس صلاح الدين، وهو الشافعي المذهب، أن دولته قامت على أنقاض دولة الفاطميين الإسماعيلية، فأخذ يعمل منذ ان استتبت له الأمور في مصر على تدعيم المذهب السني بوجه عام، والشافعي، وهو أحد فروعه، بشكل خاص في كافة أنحاء البلاد. «فقلّد وظيفة القضاء لقاضي القضاة صدر الدين بن عبد الملك بن درباس الذي عمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع اقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو في مذهب الامام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام.. الى أن أُعيدت الخطبة في أيام

الظاهر بيبرس»[١]. ولكننا نعتقد أن صلاح الدين توخى من وراء ذلك الغاء دور الأزهر الذي أسسه الفاطميون لنشر دعوتهم الاسماعيلية. ومن ثم عمل صلاح الدين على ايجاد حركة علمية تضارع بل تفوق حركة الفاطميين، فأكثر من فتح المدارس التي انتقلت اليها الدراسة من المساجد، وزاد الإقبال على هذه المدارس.

وكان من أثر وراثة بني أيوب للدولة الفاطمية ان ساروا على دربها في حبهم للكتب وولعهم بجمعها، غير أنهم، مع الأسف، أرادوا أن يتخلصوا من كل أثر للدولة الفاطمية، وخاصة ما يمت الى المذهب الإسماعيلي، فأحرقوا دور الكتب الفاطمية في الخزائن والقصور ليؤسسوا على غرارها دوراً أخرى، وخزائن تضم الكتب والمؤلفات التي تمجّد المذهب السني.

ومن طبيعة التعصُّب أن تتسم أعماله بالنزق والطيش مما أدى الى حرق الكتب جميعها وتبديدها من غير نظر الى مادتها أو موضوعها حيث ضاع الكثير من أمهات الكتب في شتى أنواع العلم والمعرفة. وها هو ذا العماد الكاتب يصف في مرارة ما أُصيبت به المكتبات الفاطمية في عهده، وهو شاهد عيان، فقال يصف إخراج هذه الكتب وتبديدها: «أخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغُرِّبت عن مساكنها، وضُربت أوكارها، وذهبت أنوارها.. واختلط أدبيها بنحويها، وشرعيها بمنطقيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخيار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءًا مجلداً، واذا فُقد منها جزء لا يخلف أبداً. فكانت تسام بالدون، وتباع بالهون»[٢].

لذلك كان فتح المدارس بداية في مصر، على أيدي الأيوبيين، أول خطوة على طريق ازدهار التعليم المدرسي على المذاهب السنية الأربعة، والمذهب الشافعي الذي اعتنقه أغلب أبناء البيت الأيوبي على وجه الخصوص. فبالعودة

---

(١) المرجع السابق، جـ ٢، ص.ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) المقدسي، شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين، جـ ١، ص ٢٦٨.

الى كتاب **الخطط** للمقريزي والى كتاب **الأعلاق الخطيرة** لابن شداد نرى أن الأيوبيين أسسوا أربعاً وعشرين مدرسة في القاهرة والفسطاط، ومدرستين في الفيوم، وجميعها على المذاهب السنية الأربعة.

من هنا نرى ان السياسة العامة للدولة الأيوبية من انشاء المدارس استهدفت سيادة المذهب السني وتوحيد كلمة أصحابه بشكل عام، وتقوية المذهب الشافعي بشكل خاص، والدفاع عن فكرة أهل السُنّة عن طريق محاربة الأفكار الإسماعيلية. لذلك عمل صلاح الدين على تقوية روابط دولته بالخلافة العباسية ببغداد، ويهمنا في موضوعنا بالنسبة لتاريخ صلاح الدين ان العلاقة بينه وبين الخلافة العباسية ازدادت رسوخاً وثباتاً بحيث فاقت بكثير ما كان هناك بين سيده نور الدين محمود زنكي والخلافة العباسية. وليس من الصعب تفسير هذه الظاهرة تفسيراً تاريخياً في ضوء المصالح المتبادلة بين صلاح الدين من ناحية والخلافة العباسية في بغداد من ناحية أخرى.

فبصرف النظر عن مذهب صلاح الدين الشافعي، وولائه، هو وأهل بيته، ولاءً روحياً للخليفة العباسي، يجب أن نضيف أن صلاح الدين عندما خرج من مصر سنة ٥٧٠ هـ. ليطوي تحت نفوذه ممتلكات نور الدين محمود بالشام، إنما كان يحس في قرارة نفسه أنه يقوم بعمل غير شرعي، لأن نور الدين له ابنه الصالح إسماعيل الذي من حقه وحده أن يرث أباه في ملكه العريض لا في الشام فحسب بل في مصر أيضاً. هذا بالاضافة الى أن البيت الزنكي بالموصل ممثلاً في سيف الدين غازي بن زنكي، وهو أخو نور الدين محمود، عزّ عليهم أن ينتزع صلاح الدين، وهو أحد الأتباع، ملك مصر والشام. ولا عبرة بما يقال من أن صلاح الدين إنما فعل ذلك من أجل جمع شمل المسلمين تمهيداً لحركة الجهاد الكبرى التي كان يعتزم القيام بها ضد الصليبيين، وأنه أعلنها صراحة عند خروجه الى الشام في سنة ٥٧٠ هـ. «إنا لا نؤْثِرُ للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألّف كلمتهم»[1]. إذ كان من الممكن أن يعمل صلاح الدين

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٢، ص ١٨.

لجمع شمل المسلمين في مصر والشام ولكن لحساب أصحاب الحق الشرعي من النوريين والزنكيين.

وتحت تأثير هذا الاحساس، كان لا بد لصلاح الدين من دعامة يرتكز إليها حكمه وتضفي عليه وعلى دولته مسحة شرعية. وليس هناك أفضل من رضى الخليفة العباسي عنه وتأييده له ومباركته خطواته.

يضاف الى ذلك أن الخلافة الفاطميين سقطت فعلاً على يد صلاح الدين، ولكنها خلفت وراءها ذيولاً لا يستهان بها. وليس من السهل أن نتصور الجهود الضخمة التي بذلها الخلفاء الفاطميون في مصر - وخاصة في عصرهم الأول - من أجل الدعاية لمذهبهم ونشره. وقد انتهى أمرها فجأة في البلاد لمجرد ان صلاح الدين أمر بالدعاء للخليفة العباسي في مساجد القاهرة. ويثبت الواقع انه رغم كل ما قام به صلاح الدين من محو وإزالة لآثار المذهب الفاطمي الإسماعيلي في مصر، ورغم كل ما قام به من جهود في اضطهاد اتباع ذلك المذهب وتتبع آثارهم، ورغم حرصه الشديد على إعلاء المذهب السني عن طريق المدارس التي أنشأها والفقهاء الذين استعان بهم.. رغم كل ذلك فقد بقي للمذهب الإسماعيلي في مصر أنصاره وأتباعه الذين لجأوا الى الثورة والعمل جهراً حيناً، والى التستر والعمل سراً حيناً آخر، مما سبب ازعاجاً لصلاح الدين وخلفائه بين وقت وآخر.

وقد أحس صلاح الدين بخطر الإسماعيلية على كيانه بعد أن تعرّض لعدة مؤامرات من جانبهم في مصر، فضلاً عن المؤامرات التي دبرها الباطنية لقتله بالشام؛ وإزاء هذا الخطر الذي هدّد صلاح الدين من جانب الإسماعيلية، وجد نفسه مضطراً للارتماء في أحضان الخلافة العباسية لما للطرفين من مصلحة واحدة ضد عدو مشترك.

وكذلك، فمن جانب الخلافة العباسية أيضاً، فانها لم تنسَ أن الخلافة الفاطمية في مصر نُحرت على أيدي صلاح الدين. ولا شك في ان الخلافة العباسية في بغداد نظرت بعين الرضى والارتياح الى الجهود الكبيرة التي بذلها

صلاح الدين في استئصال جذور التشيُّع من مصر وتوطيد دعائم المذهب السني. كما كان يعنيها أن يكون لها في مصر والشام رجل قوي يدين لها بالتبعية الروحية على الأقل ويجعلها موضع تقديره، ويدعو لها على منابر المساجد في بلاده. ولا يهم بعد ذلك ان كان هذا الرجل صاحب حق شرعي في الحكم أو لم يكن. فإذا لم يكن صاحب حق شرعي في الحكم فليضف عليه الخليفة ما يفتقده من شرعية.

* * * *

كذلك هدفت السياسة الأيوبية الى تلبية حاجة الدولة الى الموظفين المخلصين لسياستها ولمبادىء مذهبها. فمدارس الأيوبيين، عموماً، كانت بمثابة مدارس رسمية أسست ووجهت لخدمة الدولة وأيديولوجيتها. وقد فُرض عليها نوع خاص من المعارف يتم من خلاله اعداد الفرد لقبول سلطة الدولة وقوانينها. وهكذا أمكن تخريج اعداد كبيرة، من الطلاب الذين يدينون بمذهب الدولة، كما أَمكن تعيين الخريجين بالوظائف الرسمية المعدة لهم كقضاة، وأئمة مساجد، ومدرسين، وكتبة دواوين ـ وغيرها من الوظائف العامة. وبهذه الطريقة تمكنت الدولة من تحقيق هدفها من انشاء المدارس وحصلت على الموظفين الذين يطيعون الأوامر ويطبقون القوانين، سيما وأنه كان من شرط القبول في تلك المدارس أن يكون الطالب والمدرِّس «سنياً أصلاً وفرعاً»[1]. فكانت المدرسة بذلك مدداً لمستقبل المذهب الفقهي الذي يدين به جُلُّ بني أيوب، من حيث إنها تجتذب اليها طلبة يدينون بذلك المذهب، ومن حيث إنها كانت أداة قوية في تنفيذ خطط الأيوبيين.

وإلى جانب هذا كله تجدر الاشارة الى أن السلاطين الأيوبيين اشتهروا بميلهم العام الى العلم، فقربوا إليهم العلماء والفقهاء والشعراء، وحضروا مجالسهم وشاركوهم في أبحاثهم وناظروهم في مسائلهم. وبالاضافة الى ذلك فان الأيوبيين كانوا أكراداً حديثي عهد بالحكم والثقافة الاسلامية، وكانوا بالتالي

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، جـ ٢، ص ٣٠٣.

بحاجة ماسة لنيل ثقة العامة والخاصة والى اكتساب قلوبهم ورضاهم عنهم وعن حكمهم وتصرفاتهم. ولأجل ذلك لم يجدوا أمامهم طريقاً لذلك سوى انشاء المدارس ودعمها ووقف الأوقاف عليها والاكثار منها، لتحقيق ذلك الهدف من جهة، ولنيل الأجر والثواب من جهة أخرى.

وثمة دوافع وأسباب أخرى حملت الأمراء من غير العرب على إنشاء المدارس والزوايا والربط وغيرها، ووقف الأوقاف عليها منها ما ذكره ابن خلدون في مقدمته من أن «أمراء الترك في دولتهم كانوا يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفون من ذرّيتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاً لولدهم، ينظر عليها، أو يصيب منها، مع ما فيهم غالباً من الجموح نحو الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال. فكثرت الأوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد. وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها. وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم. . »[1].

من كل ذلك نستطيع الاستنتاج ان الاختصاص في المدرسة في المجتمع الاسلامي كان ذا تأثير على جماعة المذهب الواحد سياسياً، واقتصادياً، ودينياً، واجتماعياً. مما يسمح لنا بالقول بأن المدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى، عموماً، في المجتمع الاسلامي وفي العالم الاسلامي إنما أسست وأُنشئت لخدمة مصالح السلطة السياسية القائمة.

فالعلم كما قال الرسول ﷺ: علم الأديان وعلم الأبدان. وأية نهضة علمية شاملة لا بد لها لكي تعم وتشمل من الصعيدين الديني البحت والعلمي البحت. ولكن الديني فيها هو الأساس طالما انبثقت في الأصل من الدين فتمحورت عليه.

(١) - IBN Khaldun: **Discours sur l'histoire Universelle**, t. 2, p. 897.

واذا كـان المذهب فيـما بعد هـو ايديـولوجيـة النظام، فيـما لو كـان سنياً أو شيعياً، فإن المؤسسة بالتالي، إذا كانت جـامعاً أو مـدرسة، ظلت تـدور في فلك المذهب، ولو رافقتها نهضة فيها يسمى اليوم «بالعلوم الصحيحة». فـالخلاف في «الفقـه» و«الشرع» و«الكـلام»، وليس في الـطب والـريـاضيـات. والسـوانـح والبوارق في التسامح، في اطار هـذا المذهب الحـاكم أو ذاك، ليس هو القـاعدة بل مكان هو الاستثناء.

فالأزهر كجامع وجامعة في ظل الفاطميين ظَلّ شيعياً قلباً وقالباً، والمـدارس التي أُسّست في ظل الأيوبيين في مصر نسجت سنياً على هذا المنوال.

المصادر والمراجع

١ ـ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد، **عيون الأبناء في طبقات الأطباء**، القاهرة، جزءان، ١٢٩٩/١٨٨٢.

٢ ـ ابن أبي طالب، علي، **نهج البلاغة**، شرح محمد عبده، بيروت، ١٩٦٣.

٣ ـ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عبد الوهاب نجّار، ١٢ جزء، ١٣٤٨/١٩٢٨.

٤ ـ ابن جماعة، بدر الدين، **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، بيروت، د.ت.

٥ ـ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ٦ أجزاء، ١٩٤٨.

٦ ـ ابن شداد، بهاء الدين، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤.

٧ ـ ابن شداد، محمد أبو علي، **الأعلاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق سامي دهان، دمشق، جزءان، ١٩٥٦.

٨ ـ ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، **جامع بيان العلم وفضله**، بيروت، جزءان، د.ت.

٩ ـ ابن العديم، كمال الدين، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ٣ أجزاء، ١٩٥١.
١٠ ـ ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل الشيباني، **الحوادث الجامعة**، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، ١٩٣٢.
١١ ـ ابن منظور، جمال الدين، **لسان العرب**، بيروت، ١٤ جزء، د.ت.
١٢ ـ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، القاهرة، جزء ١ و٢ و٣ تحقيق جمال الدين الشيال، ١٩٥٣، ١٩٥٧ و١٩٦٠. جزء ٤ تحقيق حسنين محمد ربيع، ١٩٧٢.
١٣ ـ آل كاشف الغطاء، محمد الحسين، **أصل الشيعة وأصولها**، بيروت، ١٩٨٢.
١٤ ـ أمين، أحمد، **ضحى الاسلام**، القاهرة، ٣ أجزاء، ١٩٦١.
١٥ ـ أمين، أحمد، **ظهر الاسلام**، القاهرة، ٣ أجزاء، ١٩٦٢.
١٦ ـ أمين، حسين، **تاريخ العراق في العصر السلجوقي**، بغداد، ١٩٦٥.
١٧ ـ بدوي، أحمد أحمد، **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، القاهرة، د.ت.
١٨ ـ البغدادي، عبد القاهر، **الفرق بين الفرق**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة، د.ت.
١٩ ـ حسن، حسن ابراهيم، **تاريخ الدولة الفاطمية**، القاهرة، ١٩٥٨.
٢٠ ـ حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، القاهرة، ١٩٤٧.
٢١ ـ السبكي، أبو نصر عبد الوهاب، **طبقات الشافعية الكبرى**، ٦ أجزاء، ١٩٠٦.
٢٢ ـ السجستاني، أبو يعقوب، **إثبات النبوة**، تحقيق عارف تامر، بيروت، ١٩٦٦.
٢٣ ـ سرور، أحمد جمال الدين، **مصر في عهد الدولة الفاطمية**، القاهرة، ١٩٦٠.

٢٤ ـ السيوطي، جمال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة، جزءان، ١٩٦٧.
٢٥ ـ شلبي، أحمد، تاريخ التربية الاسلامية، القاهرة، ١٩٥٤.
٢٦ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد بن فتح الله بدران، جزءان، ١٩٥٦.
٢٧ ـ الشيباني، عمر محمد التومي، من أسس التربية الاسلامية، طرابلس الغرب، ١٩٧٩.
٢٨ ـ الشيرازي، مؤيد الدين، المجالس المؤيدية، تحقيق محمد عبد القادر عبد الناصر، القاهرة، ١٩٧٥. [ثمة طبعةأخرى تحقيق مصطفى غالب، بيروت، ١٩٧٤، (سلسلة منتخبات إسماعيلية)].
٢٩ ـ طلس، محمد أسعد، التربية والتعليم في الاسلام، بيروت، ١٩٥٧.
٣٠ ـ العاملي، زين الدين بن أحمد، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، تحقيق عبد الأمير شمس الدين، بيروت، ط ١، ١٩٨١.
٣١ ـ العسلي، كامل، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١.
٣٢ ـ العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، القاهرة، د.ت.
٣٣ ـ عيسى، عبد الحميد، تاريخ التعليم في الأندلس، القاهرة، ١٩٨٢.
٣٤ ـ الكرماني، حميد الدين راحة العقل، تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمي، القاهرة، ١٩٥٣، (سلسلة منتخبات اسماعيلية).
٣٥ ـ كرد علي، محمد، خطط الشام، دمشق، ٦ أجزاء، ١٩٢٨.
٣٦ ـ القرماني، أبو العباس احمد بن يوسف، كتاب أخبار الدول وآثار الأول، بيروت، د.ت.
٣٧ ـ المعاضيدي، خاشع، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، بغداد، ١٩٨٦.
٣٨ ـ المقدسي، شهاب الدين (المعروف بأبي شامة)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، جزءان، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢.

٣٩ ـ المقدسي، شهاب الدين عبد الله بن محمد (المعروف بالبشاري)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، ١٩٠٦.
٤٠ ـ المقريزي، تقي الدين، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط)**، القاهرة، جزءان، ١٢٧٠/١٨٥٣.
٤١ ـ المقريزي، تقي الدين، **اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا** تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨.
٤٢ ـ النعيمي، عبد القادر بن محمد، **الدارس في تاريخ المدارس**، تحقيق الأمير جعفر الحسني، دمشق، جزءان، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١.
٤٣ ـ النوبختي، أبو محمد، **فرق الشيعة**، النجف، ١٩٥٩.
٤٤ ـ مقدسي، جورج، «رعاة العلم»، ترجمة إحسان عباس، **مجلة الأبحاث**، الجزء الثالث، ١٩٦٩، ص ٥٠٩ و ٥١٠.